ورقة من تاريخ الاستشراق في النمسا :

الابحاث العربية الجنوبية

بقلم ماريا هوفنر

تشير عبارة «الجنوب العربى» فى الحقل العلمى إلى جزء صغير نسبياً من شبه الجزيرة العربية، وهو ما يدعى اليوم باليمن وحضرموت. وقد نشأت فى هذه البقاع قبل ظهور النبى محمد بزمن طويل حضارة راقية مازالت شواهدها — إلى حد ما على الأقل — بادية للعيان حتى اليوم. فهناك خرائب اسوار عظيمة وحصون ومعابد وقنوات للرى تشير جميعها إلى مقدرة تكنولوجية عالية وإحساس فنى دقيق جداً كان يتمتع بهما سكان الجنوب العربى القدماء، كما تشير إلى المستوى الذى بلغوه من الثروة والرفاه. ويتحدث عن ذلك الكتاب المقدس والمؤرخون اليونانيون والرومانيون الذين كانوا يطلقون على تلك البقاع اسم «بلاد العرب السعيدة». أما مصدر تلك الثروة فكانت التجارة. إذ كانت السلع القادمة من الشرق، من الهند والصين، والمتجهة إلى مصر وبلاد حوض البحر الابيض المتوسط، تمر، خاصة فى الأزمنة القديمة، «بطريق البخور» التى كانت تبدأ من مينائى عدن وقنا وتخترق شبه الجزيرة العربية كلها إلى الشمال. واشتهرت تلك الطرق التجارية بهذا الاسم بسبب السلع التى كانت تنتج فى الجنوب العربى نفسه وتصدر بكميات كبيرة كالبخور وغيره من الأفاويه.

ويمكن الإطلاع على الأوضاع السياسية والثقافية للجنوب العربى القديم من النقوش الحجرية العديدة التى انتهت الينا. فهى الوثائق الكتابية الوحيدة المتبقية من عهود الحضارة الرفيعة القديمة والتى يعود أصلها إلى البلاد نفسها بحيث تكون بهذه الصفة أكبر قيمة وأعظم أهمية من جميع ما انتهى الينا من روايات المؤلفين اليونانيين والرومانيين والعرب المتأخرين. ورغم عدد هذه النقوش الكبير — إذ بلغ ما نعرفه منها عدة ألوف — غير أنها لا تعطى صورة خالية من الثغرات عن الدول القديمة فى الجنوب العربى وأوجه حياتها الثقافية. وفيما يتعلق بأقدم العصور خاصة نعرف وثائق قليلة نسبياً، وهى فى الغالب لا تحتوى على تفاصيل كثيرة. ولكنها تزداد عدداً فى الأزمنة التالية وتصبح اكثر إفصاحاً وتقدم عدة تفصيلات فى غاية الأهمية. ومع ذلك فاننا لا نتعرف دوماً إلا على مقاطع متفرقة لابد من جهد جهيد لإتمامها والربط فيما بينها؛ وكثيراً ما نكره على الاكتفاء والتوقف عند نقاط قلقة غير أكيدة.

وقامت فى الجنوب العربى قبل الإسلام ممالك أربع : سبأ وقتبان ومعين وحضرموت. وكانت أقدم هذه الممالك وأطولها بقاء مملكة سبأ. وكان شكل الدولة فى بادئ الأمر ثيوقراطياً، أى أن إله البلاد كان فى الوقت نفسه ملكها؛ وكان نائبه الدنيوى يلقب بالمكرب. وفيما بعد، أى ابتداء من ٤٠٠ ق.م. فصاعداً، نجد فى سبأ مملكة دنيوية؛ ومع ذلك فقد ظلت الصلة بالدين إلى عهود متأخرة وثيقة جداً. وكان على المملكة السبئية خلال عهد طويل أن تخوض معارك حامية وخاصة مع الدول الاخرى فى الجنوب العربى، وكان الخطر يهدد وجودها اكثر من مرة. ولم تتحقق وحدة مجموع بقاع الجنوب العربى القديمة إلا حوالى ٣٠٠ ميلادية وذلك تحت سيادة ملك واحد هو شمَّر يُهَرعِش الثالث. وفى عام ٥٢٥ ميلادى فقدت هذه المملكة استقلالها وخضعت أولا للسيادة الاثيوبية، وفيما بعد للسيادة الفارسية، إلى أن تم فتح هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية أيضاً تحت راية الإسلام فى القرن السابع.

ومع أننا نستطيع أن نحدد نهاية استقلال الجنوب العربى زمنياً، إلا أن وجهات النظر تختلف اختلافاً كبيراً إلى حد ما فيما يتعلق بتحديد التسلسل التاريخى. ويعود هذا بالدرجة الأولى إلى طبيعة النقوش التى كانت — وخاصة فى العهود

الأقدم – إما لا تحمل تواريخ إطلاقاً أو مؤرخة حسب أعوام حكم ملوك العصور البارزة دون أن تعرف تواريخها المطلقة على وجه التحديد.

لقد قدمنا للمقالة بهذه المعلومات القليلة لنعطي فكرة تقريبية عن البقاع والحضارة التي تتناولها دراسات الجنوب العربي بالبحث. وللنمسا نصيب حاسم في استكشاف البلاد التي دعاها استاذ جامعة جوتنجن ميشائيلس في القرن الثامن عشر بحق «إحدى أغرب البلاد»، كما لها نصيب قاطع في حل رموز نقوشها التذكارية وبذلك كشف النقاب عن لغتها وتاريخها وحضارتها؛ لا بل يمكن أن نقول بأن الدراسات السبئية أنشئت هنا كعلم قائم بذاته.

وكان استكشاف الجنوب العربي دوماً ومازال مجازفة جريئة. إذ أن الظروف المناخية وطبيعة الأرض تفرض أقسى المطالب على المسافرين وذلك حتى اليوم رغم استخدام الطائرة والسيارة للتغلب على المسافات. ويضاف إلى ذلك تهيب السكان ورفضهم لكل دخيل أجنبي. كما أن الخلافات الدائمة بين القبائل المختلفة تجعل السفر في غاية الخطورة وتحول دون المضي في اتباع طريق معينة. وإن أهم المناطق التي يمكن أن تعطي أغلب وأطرف المعلومات عن الأوضاع القديمة هي بالذات الأصعب بلوغاً للمسافر. وإزاء كل ذلك يزداد إعجابنا بشجاعة وصمود وتضحية الرواد الأوائل في استكشاف الجنوب العربي بوجه خاص. وأول نمسوي بين هؤلاء الرجال الذين لا يهابون المخاطر «زيجفريد لانجر» Siegfried Langer. ويعود منبته إلى تشيكوسلوفاكيا الحالية التي كانت آنذاك جزءاً من المملكة النمسوية – المجرية. ولد لانجر عام ١٨٥٧ في ميرن Mähren ودرس في ڤيينا من جملة ما درس اللغات الشرقية وعنى خاصة باللغة العربية. ومكنه وجود بعض العرب السوريين من التمرن على التحدث بالعربية أيضاً. ورغم أنه كان يعيش تحت ظروف خارجية صعبة إلا أنه تمسك باجتهاد ومثابرة شديدين بدراسته التي كانت آنذاك لا تبعث بكبير أمل في النجاح المادي. وفي الثاني والعشرين من حزيران (يونيو) عام ١٨٨١ بدأ رحلته إلى الجنوب العربي. وكان قد حصل على إعانات مادية من عدة جهات بحيث كان حسن العدة من هذه الناحية. وبعد إقامة ستة شهور في سوريا بدأت رحلته الحقيقية خلال شبه الجزيرة العربية. واضطر إلى التخلي عن خطته في بلوغ الجنوب من خلال عسير بسبب ثورة كانت ناشبة في تلك المنطقة. ومضى بالسفينة إلى الحديدة وانتقل من هناك عبر زران وضف إلى صنعاء، عاصمة اليمن، التي كانت تحت السيطرة التركية آنذاك. وإذ وصل هناك لم تسمح له السلطات التركية بمواصلة سفره داخل البلاد؛ بل أجبر على العودة إلى الحديدة. وهكذا واصل سفره إلى عدن؛ ومن هناك بعث إلى اوروبا بالرسوم التي أتمها حول رحلته حتى تلك المرحلة وبنسخ عن نقوش عربية جنوبية استطاع أن ينقلها هناك، بحيث أمكن بذلك إنقاذها والمحافظة عليها للباحثين فيما بعد. وعلى أثر ذلك بحين قصير لاقت رحلة لانجر الجريئة نهاية فظيعة مؤلمة. إذ بينما كان يحاول اختراق قلب حضرموت متنكراً بزي بدوي، قتله مرافقوه من أهل البلاد. وقيل انهم أطلقوا عليه الرصاص من سلاحه نفسه بينما كان يستحم في أحد الأنهار.

بعد موت زيجفريد لانجر المفجع بحين قليل بدأ نمسوي آخر عمله الاستكشافي في الجنوب العربي، ونعني به إدوارد جلازر E. Glaser. وكان هو أيضاً من أهل تشيكوسلوفاكيا الحالية. وولد في دويتش – رست Deutsch-Rust عام ١٨٥٥ وكان عليه أن يقضي اعوام دراسته، كلانجر، في حرمان شديد وشظف من العيش. وبعد انهاء دراسته الثانوية التحق اولا بجامعة براغ، ثم انتسب فيما بعد إلى جامعة ڤيينا حيث حصل على وظيفة في المرصد. وفي ڤيينا اهتم كذلك بكثير من الاجتهاد بدراسة اللغة العربية، إذ كان قد عزم منذ سني المدرسة على أن يصبح رحالة استكشافياً، واختار فيما بعد شبه الجزيرة العربية خاصة هدفاً له. وكان استاذه في العربية اول الأمر ڤارموند Wahrmund ثم تلاه داوود هاينرش موللر David Heinrich Müller. وأيقظ الأخير اهتمام جلازر بالجنوب العربي حيث نجح فيما بعد بأعماله الاستكشافية. ولإعداد خططه على أحسن وجه ممكن توجه إلى مصر وتونس. وعمل هناك معلماً منزلياً ونال في ذلك فرصة إتقان اللغة والعادات العربية تماماً. ومكنته هذه المعارف الدقيقة بالإضافة إلى شجاعته وبراعته الخارقة في معاشرة الناس من بلوغ نجاحاته الفريدة في رحلاته وهي نجاحات لم تفقها، لا بل لم تبلغها، أية رحلات استكشافية في الجنوب العربي حتى يومنا هذا.

وتقع رحلات جلازر إلى الجنوب العربي في الأعوام ما بين ١٨٨٢ و١٨٩٤. ومن رحلته الأولى التي مولتها ڤيينا وباريس احضر معه ما يقارب الـ ٢٨٠ نسخة من النقوش مع أربعة نقوش حجرية أصلية طالبت بها الاكاديمية في باريس مقابل ما أسهمت به لتمويل الرحلة. وكان جلازر قد أصيب إصابة شديدة بالحمى بعد وصوله

الحديدة. وحين بلغ صنعاء كان عليه أن يظل هناك عاماً بطوله فى انتظار وصول جواز سفر من استانبول، لم يسمح له الحاكم التركى بدونه أن يواصل سفره. ومع مرور الوقت تمكن جلازر من كسب ثقة هذا الرجل بالذات الذى أصبح صديقاً وعوناً له فى مناسبات تالية. وقام جلازر من صنعاء بثلاث جولات استكشافية تفحص خلالها خرائب ونسخ ما شاهد فيها من نقوش. وعرض حياته اثناء ذلك عدة مرات للخطر ولكنه تمكن من النجاة فى كل مرة من دسائس مرافقيه.

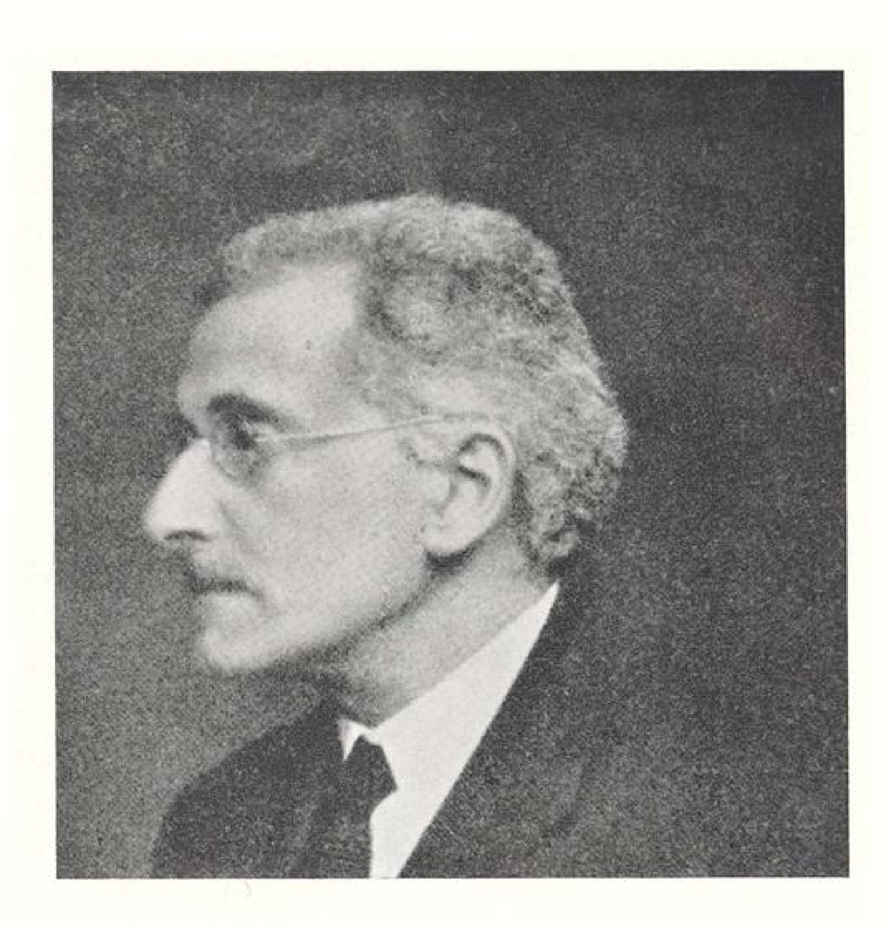
وفى العام التالى بعد عودته، أى فى ١٨٨٥، بدأ رحلته الثانية إلى الجنوب العربى. ومول رحلته هذه كلها تقريباً من حسابه الخاص. وهنا أيضا توجه فى بادئ الأمر إلى صنعاء وراح ينقب باحثاً ومستكشفا المنطقة الممتدة بين صنعاء وعدن. واستطاع هذه المرة أن يجمع عدداً كبيراً جداً من النقوش الحجرية، انتقل جزء منها إلى المتحف البريطانى فى لندن وجزء إلى برلين حيث باع كذلك ٢٥٠ مخطوطاً عربياً. ومن الأرباح التى درّتها عليه هذه المواد العلمية تمكن جلازر إلى اكبر حد من تمويل رحلته الثالثة والناجحة نجاحاً خاصاً.

وفى هذه المرة، فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٨٧، مضى من عدن فى رحلة دامت ٤٤ يوماً إلى صنعاء قام فيها بدراسة ورسم ونسخ كل ما بدا له هاماً وشيقاً اثناء الطريق. ولكن هدفه الحقيقى كان العاصمة السبئية القديمة مأرب، التى تقوم على انقاضها اليوم قرية صغيرة غير هامة، يصعب الوصول إليها كثيراً مع ذلك. ولم يتمكن من قبله إلا الفرنسيان آرنو Arnaud وآليفى Halévy من التغلغل إليها. واستطاع جلازر، متنكراً فى زى فقيه عربى وبصحبة أصدقاء له من أهل البلاد، أن يبلغ مأرب وأن يجمع هناك خلال ستة أسابيع مواد نفيسة كثيرة. ونسخ عدداً كبيراً من النقوش، منها ما هو مهم جداً، وزار السور البيضوى الكبير بالقرب من مأرب، وهو ما يدعى اليوم بمحرم بلقيس، والذى كان فى الماضى أهم معبد لإله القمر والمملكة السبئية، وزار كذلك بقايا السد الهائل الذى كان يتمتع فى الماضى بشهرة عالمية مع ما يتصل به من قنوات للرى أحالت فى الماضى السهل الممتد على جانبى وادى ذنه إلى أرض خصبة معطاء. ويعتبر وصف ومقاييس هذه المنشئات وكذلك بقية نتائج أبحاث جلازر فى مأرب ذات أهمية لا حد لها حتى اليوم، رغم أعمال الحملة الاستكشافية الضخمة التى قامت بها المؤسسة الامريكية لدراسة الإنسان عام ١٩٥٢. وكان بوسع جلازر فى رحلته الثالثة هذه بالذات أن يقوم بأبحاث وانجازات أعظم للحقل العلمى لو أنه لم يضطر إلى انهائها قبل الأوان بسبب افتقاره إلى المال؛ ومما لا يفهم حتى اليوم، رغم أنها حقيقة مرة، أن بلاده رفضت أن تقدم له أى عون مالى. أما قصة رحلته إلى مأرب فقد قام موللر ورودوكاناكيس N. Rhodokanakis بنشرها حسب مذكراته عام ١٩١٣ («مجموعة ادوارد جلازر ١ : رحلة ادوارد جلازر إلى مأرب»).

وفيما بين عام ١٨٩٢ و١٨٩٤ قام جلازر برحلته الرابعة والأخيرة إلى الجنوب العربى. ومضى هذه المرة أيضاً من عدن إلى صنعاء، ولكنه اتجه فى طريقه اكثر غرباً عابراً تعز. وكان وضعه فى صنعاء كالمعتقل عملياً، إذ انه لم يستطع مغادرة المدينة بسبب الثورات فى جميع أرجاء البلاد. وعند ذلك وجد لنفسه مخرجاً، وهو أنه علم بعض البدو فن طبع الألواح المنقوشة على نوع معين من الورق بطرقها عليه بحيث تنشأ صورة مطابقة تماماً للأصل. وهكذا انتشر البدو الذين دربهم على ذلك فى ضواحى المدينة القريبة والنائية بحثاً عن النقوش واحضروا من اماكن لم يصلها رحالة بعد مواد كثيرة غنية. وبذلك عرفت لأول مرة النقوش القتبانية بوجه خاص. واشترى متحف تاريخ الفن فى ڤيينا ما جمعه جلازر فى هذه الرحلة من نقوش حجرية وغير ذلك من النفائس الأثرية.

مات جلازر عام ١٩٠٨ فى ميونخ. ولا يمكن تقدير إنجازاته وخدماته فى سبيل العلم كما لم يتفوق عليه فى ذلك الحقل أحد بعد. وبفضل ما جمعه من كميات هائلة من النقوش والقطع الأثرية ومعلوماته الطوبوغرافية الدقيقة ووصفه المسهب التفصيلى للخرائب الأثرية أمكن لأول مرة إنشاء الدراسات السبئية كعلم قائم بذاته. ولم ينته العمل على ما جمعه حتى اليوم بعد، بل هناك كنوز من الآثار مازالت تنتظر البحث والدراسة والنشر. أما ما خلفه جلازر من تركة علمية واسعة فقد اشترته اكاديمية العلوم فى ڤيينا.

وكانت «بعثة الجنوب العربى الاستكشافية» التى اوفدتها اكاديمية العلوم فى ڤيينا العمل العلمى التالى الذى قامت به النمسا فى الجنوب العربى. وكان أعضاء البعثة د. هـ. موللر وأ. سيمونى O. Simony وف. كوسمات F. Kossmat وأ. يان A. Jahn وطبيب، بالاضافة إلى الكونت السويدى لاندبرغ Landberg، الذى سرعان ما انفصل عن الآخرين، وسكرتيره ج. ڤ. بورى G. W. Bury ومع أن البعثة لم تستطع أن تبلغ هدفها الاصلى، وهو



نيكولاوس رودوكاناكيس

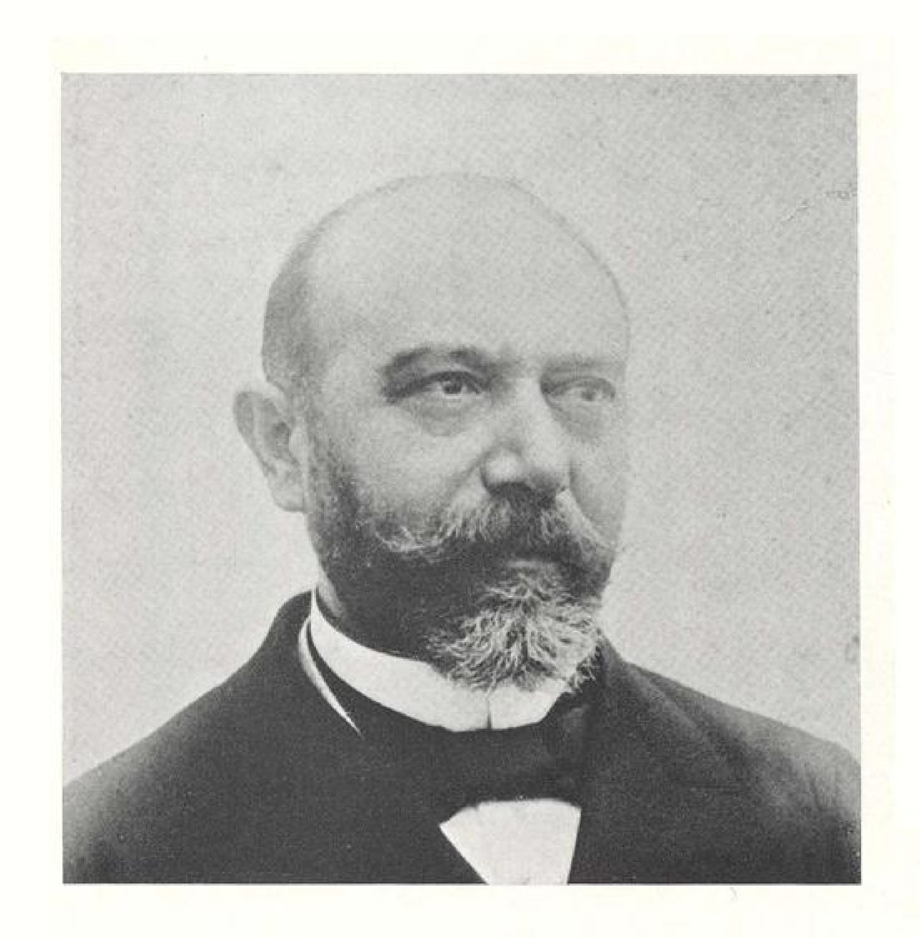
استكشاف حضرموت، لامتناع السلطات عن إعطائهم ترخيصاً بالدخول، إلا أنها اتجهت نحو جزيرة سوقطره وفيما بعد انتقلت إلى المكلا، على الساحل الشرقى من حضرموت. واعطى هذا التغيير غير المقصود فى هدف الرحلة نتائج هامة: فبالإضافة إلى ملاحظات علمية طبيعية وجغرافية سجل ما يدعى بلغات مهرا (المهرية والشخرية والسوقطرية) وهو عمل بالغ الأهمية نظرا لبدء زوال هذه اللغات المنتشرة فى ساحل مهرا وفى الجزر المحيطة. وقام ج. ڤ. بورى بجمع النقوش العربية الجنوبية تحت رمز SE وهما الحرفان الاولان لعبارة «بعثة الجنوب العربى» باللغة الألمانية. وقد نشرت جميعها.

وقام ڤيلهلم هاين Wilhelm Hein كذلك برحلة عام ١٩٠١ جاب فيها كذلك المناطق الشرقية من حضرموت ومكث بضعة شهور فى فشن، أهم قرية فى بلاد مهرا، وجمع مراجع لغوية (المهرية والحضرمية) ومعلومات احصائية واسعة عن سكان قشن واقنع عند عودته رجلا من حضرموت وآخرين من سوقطرة أن يصطحباه إلى ڤيينا، حيث قدما أجل الخدمات كمراجع لغوية وسيطة.

وبعد فترة طويلة تلت ذلك رحلات هـ. فون ڤيسمان H. v. Wissmann إلى الجنوب العربى. ومع أن فون ڤيسمان ليس نمساوياً بالولادة إلا أنه قضى حياته منذ الطفولة فى النمسا، كما أن صلته وثيقة بڤيينا بفضل بداية عمله الاكاديمى كعالم جغرافى. وأدى به عمله الجامعى فيما بعد إلى الانتقال إلى الصين ومن ثم إلى توبنجن بألمانيا، حيث يعيش حتى اليوم كاستاذ متقاعد. وتمت رحلته الأولى بين عامى ١٩٢٧ و١٩٢٨ وذلك بصحبة ك. راتينز C. Rathjens، واتجها فيها من الحديدة إلى صنعاء، ومن هنا سعى كل منهما إلى استكشاف جهة مختلفة من المنطقة المجاورة. ومع أن الاهتمام الجغرافى احتل مكان الصدارة، إلا أن علمى الآثار والنقوش الحجرية فازا بمعارف ومكاسب غنية بفضل أبحاث العالمين المتعددة الجوانب، كما يحق لهما أن يشتهرا بالقيام بأول حفريات أثرية فى الجنوب العربى كان من نتائجها كشف النقاب فى حقه عن معبد الإله تألب.

وقام فون ڤيسمان بالرحلات الثلاث الباقية فى الاعوام ١٩٣١ و١٩٣٩ و١٩٥٨ جاعلاً حضرموت هدف أبحاثه. واخترق فى ذلك مناطق لم تستكشف بعد كما جاء كذلك بنتائج غنية متعددة الوجوه كما فى الرحلة الأولى. وكان بصحبة فون ڤيسمان فى هذه الرحلات بالاضافة الى الهولندى د. ڤان در مويلن D. van der Meulen زوجه الدكتورة بيتينا فون ڤيسمان وهى سيدة من ڤيينا، والدكتور فون ڤاسيلڤسكى v. Wasielewski وا. لايدلماير A. Leidlmair، وهو نمسوى أيضاً.

إن العالم الاثنولوجى ڤ. دوستال W. Dostal هو فى



إدوارد جلازر

الوقت الحاضر آخر نمسوى زار الجنوب العربى ، وعلى وجه التحديد حضرموت. وقام بدراسات تتعلق بتاريخ القبائل وبحوث اثنوغرافية عامة لدى كثير من القبائل القاطنة هناك وعنى فى ذلك عناية خاصة بقضايا مراحل البداوة الأولى المبكرة.
وكما يتضح مما أوردناه حتى الآن فقد اسهمت النمسا بنصيب كبير فى بحث ودراسة مناطق حضارة الجنوب العربى. ولا يقل عن ذلك ضخامة ، إن لم نقل اكثر أهمية وأبعد أثراً ، ما قدمه العلماء النمسويون من خدمات وأعمال فى تقييم النقوش والمواد التى جمعها الرحالون المستكشفون تقييماً علمياً دقيقاً. ومن الرحالين انفسهم من عمل فى هذا الحقل كأعمال جلازر مثلا ؛ وقد يكون الكثير مما توصل إليه من نتائج باطلا اليوم ، أو مشحوناً بالخيال البعيد عن الحقيقة ، إلا أنه أصاب فى بعض ما توصل إليه بنظرة عبقرية. ولن نقسو بالحكم على جلازر بسبب «شطحاته» وحواشيه التى غالباً ما تبدو على جانب من الغرابة ولا تمت للموضوع بصلة ، إذا ما اعتبرنا كثرة تجارب خيبة الأمل المريرة التى مر بها هذا الرجل المثالى الذى كرس كل جهوده وقواه فى خدمة الواجب المقدس الضخم الذى اختاره لنفسه.
ومن رواد الدراسات السبئية د. ه. موللر. إذ استطاع بعمله على حل ونشر عدد كبير من نقوش الجنوب العربى القديمة وكذلك بأعماله الخاصة بلغات بلاد المهرا أن يبلغ شهرة علمية رفيعة. وفيما يتعلق بالحقل الأخير نذكر كذلك منشورات ا. يان وف. هاين ، وخاصة ما قدمه ماكسميليان بيتنر Maximilian Bittner من دراسات نحوية ومعجمية خاصة بالمهرية والشخرية والسوقطرية وكانت مجموعات النصوص التى نشرها العلماء المذكورون القاعدة التى استندت عليها هذه الدراسات. وخلق بيتنر بذلك اساساً لابد لكل عمل قادم فى هذا الحقل أن يقوم عليه. كما أن دراساته ذات أهمية كبيرة للعلوم السبئية كمواد مقارنة.
أما أهم تلامذة موللر واكبر مساعد له فيما بعد فهو نيكولاوس رودوكاناكيس Nikolaus Rhodokanakis الذى يمكن أن يعتبر بحق كامل المؤسس الحقيقى للدراسات السبئية كعلم مستقل يجب أن يؤخذ بمأخذ الجد. ولد رودوكاناكيس فى الاسكندرية عام ١٨٧٦ وهو من أصل يونانى — وكان أجداده يعيشون فى جزيرة خيو ، واضطروا إلى مغادرتها فراراً من الأتراك — ومنذ نعومة أظفاره ترعرع رودوكاناكيس فى النمسا وامضى بقية حياته فيها وشعر بانتمائه الكامل لهذه البلاد. ودرس فى بادئ الأمر الحقوق غير أنه سرعان ما انكب على دراسة الاستشراق فى جامعة ڤيينا ثم أصبح استاذاً نظامياً عاماً لمدة طويلة فى غراتز حيث توفى فى نهاية عام ١٩٤٥. وبعد بضعة

أبحاث لغوية عربية كرس نفسه بولاء كامل ومثابرة حديدية للدراسات السبئية. وكان يتمتع بموهبة خارقة لذلك. وتمتاز أعماله بنظرة عبقرية تدرك الشيء الجوهري وبطريقة علمية صارمة. ومن مجموعات نقوش جلازر الوفيرة اختار أصعبها وقام بنشرها ضارباً مثلاً أعلى بأسلوبه العلمي الدقيق. وإذا استدعت إكتشافات جديدة في النقوش وغيرها من الآثار اليوم تصويباً في بعض وجهات النظر آنذاك، وخاصة فيما يتعلق بعدد من التفاصيل التاريخية التي لم تعد صحيحة — فإن ذلك لا يقلل شيئاً من خدمات رودوكاناكيس العلمية الجليلة. وقد قام في ميدان الدراسات المعجمية والنحوية كذلك بانجازات طليعية ناجحة كما فعل كذلك في ميدان دراسة واقع الجنوب العربي. وفي تفسير النصوص المتعلقة بالحقوق العقارية باصطلاحاتها الموجزة الغامضة استعان بدراسته الحقوقية السابقة ومعرفته الجيدة للأوضاع في مصر أثناء عهد البطالسة. وبترجمة وتفسير هذه النقوش العسيرة الفهم تمكن رودوكاناكيس من رسم صورة حية للاقتصاد العقاري والزراعي وما يتعلق به بأوثق الصلات من ظروف وأوضاع اجتماعية وسياسية عامة كانت سائدة في الجنوب العربي القديم، وهي صورة ما زالت يحتفظ بصحتها حتى يومنا هذا.

وكانسان يتمتع بطيبة قلب كبيرة وبمزاج رقيق شديد الحساسية، إلا أن رودوكاناكيس لم يكن ليترك في العلم مجالاً للمهاودة. فهنا كان تجاه نفسه وتجاه زملائه وتلاميذه أشد ما يكون حزماً وصرامة. وكان قبل أن يقدم مخطوطاً للطبع، يعيد كتابة بعض الصفحات مرتين وثلاثاً، لأنها لم تكن لتجتاز امتحانه العسير في اليوم التالي، رغم أنها لم تكن تكتب إلا بعد تمحيص وتدقيق طويلين. وليس من السهل قراءة أعمال رودوكوناكيس، إذ أن اصطلاحاته واسلوبه التعبيري تكاد تذكر في كثير من الحالات بنقوش الجنوب العربي. ولكن أعماله محكمة دقيقة كهذه أيضاً، وإذا بذل المرء جهده لدراستها باهتمام وانتباه حقيقيين، لأفاد من ذلك كثيراً.

وممن أغنى الأبحاث السبئية بعدة دراسات كبيرة وعدد كبير من المقالات في المراجع العلمية أيضاً أدولف غرومان Adolf Grohmann فدراسته حول رموز الآلهة والحيوانات الرمزية مازالت اساساً لبحث ديانة الجنوب العربي القديمة. ومنذ حين قريب نشر العالم الذي بلغ الثمانين من عمره في كتابه «شبه الجزيرة العربية» (المختصر في علم التاريخ القديم ٣ / ٣) معلوماته الوفيرة عن تاريخ وحضارة شبه الجزيرة العربية، بحيث أصبح في متناول يدنا مرجع مهم، كذلك بالنسبة لدراسات الجنوب العربي.

وقام أحد تلاميذ رودوكاناكيس وهو كارل ملاكر Karl Mlaker بنشر بحث أساسي حول ما يدعى بقوائم الرهائن الإلهية في معين توصل فيه الى نتائج هامة في ميدان علم التأريخ، ما زال جزء منها هاماً حتى اليوم رغم جميع التطورات في هذا القطاع بالذات من الابحاث السبئية. وهو مقنع فيما يقدمه من تفصيلات حول طبيعة ومكانة «الرهائن الآلهية» في الجنوب العربي، وهم، كما يفسرهم، أشخاص رهنوا لسداد نذور قطعت لإله أو لمعبد. ومما يؤسف له أن العمل المهني كان يستنزف كثيراً من وقت وجهد ملاكر بحيث لم يتمكن من وضع معلوماته التاريخية واللغوية الغنية في خدمة العلم كما كان يرغب. ثم انتزعه الموت قبل أوانه بكثير.

وكان من حسن حظي أيضاً، أن تتلمذت على رودوكاناكيس. وحتى اطروحتي التي تقدمت بها للدكتوراه اختصت بالنقوش الحجرية، ومازال هذا العلم حتى اليوم الميدان الرئيسي الذي أبحث وأعمل فيه. وبعد نشر ما لم ينشر بعد من نقوش بعثة الجنوب العربي المذكورة سابقاً، والعمل على نقوش حجرية اخرى، قمت بتأليف كتاب في قواعد العربية الجنوبية القديمة التي اعتبرتها لا غنى عنها للبحوث السبئية وكذلك للغات السامية المقارنة. وبعد الانتهاء من طبع الكتاب احترقت جميع نسخه تقريباً عام ١٩٤٣ اثناء غارة جوية على لايبزغ، ولكنه اعيد طبعه فيما بعد استناداً إلى احدى النسخ القليلة التي امكن انقاذها. وكجزء تكميلي للكتاب كان قد قرر منذ البداية وضع منتخبات للمطالعة مع مفردات مشروحة وكان على ملاكر أن يقوم بتأليفها. ولكنه لم يتمكن من تحقيق ذلك؛ فقررت أن يكون هذا العمل مع ملحق وتصحيح جزئي للقواعد على أساس النصوص الجديدة المكتشفة حديثاً جزءاً من برنامجي القادم.

وبدأت في العمل على القواعد في جراتز وبعد الحصول على إجازة التدريس الجامعي انهيته في ڤيينا. ودرست العربية الجنوبية القديمة والاثيوبية في جامعة ڤيينا لبضعة أعوام. وكنت اقطع التدريس عدة مرات أثناء هذه المدة واتجه إلى توبنجن لدراسة أهم لغات اثيوبيا السامية على يدي الاستاذ إينو ليتمان. وبما أنه لم تكن للمدرس الجامعي في النمسا أي امكانيات معيشية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، فقد بقيت في توبنجن، كضيفة في بادئ الأمر، ثم طلبت نقل الاذن بالتدريس إلى هنا ورحت أحاضر



حجر محفور عليه كتابة ، من اليمن ، مدون عليه اسم شخص ...

فى حقلى الاختصاصى فى إطار قسم الدراسات الشرقية فى الجامعة ، إلى أن استدعيت عام ١٩٦٤ إلى جراتز لاحتلال مقعد الدراسات الشرقية الذى خلا هناك.

وفى توبنجن بدأت بتكليف من أكاديمية العلوم النمسوية بنشر ما لم ينشر بعد من مخلفات جلازر العلمية ، وهو عمل مازال مستمراً وسيستغرق بعض الوقت أيضاً. وفوق ذلك فقد اوليت اهتماماً شديداً بأديان ما قبل الاسلام فى شبه الجزيرة العربية ، حيث تركز اهتمامى بالدرجة الأولى على الجنوب العربى. وبين الالاف العديدة من النقوش العربية الجنوبية لا يوجد نص واحد يعالج اموراً دينية بالذات ، كأن يحتوى مثلا على اساطير أو مراسيم دينية أو تراتيل. ويبدو هذا اكثر غرابة عندما تكشف النصوص من الجهة الاخرى بوضوح عن مدى الاهمية المركزية التى كان يتمتع بها الدين فى الحياة العامة والخاصة. ومما تقدمه النقوش من مادة لدراسة الدين القديم إلى جانب بضع نقاط انطلاق قليلة نسبياً ، أسماء الآلهة بالدرجة الأولى. وفى هذا العدد الغفير من الأسماء كانت المهمة الرئيسية التى تتطلب الحل : فرض نظام معين لهذه الأسماء ، وادراك كل من الصور الإلهية الكبيرة على اختلاف اشكال ظهورها ، والتى يحمل كل منها اسماً خاصاً ، وأخيراً محاولة معرفة شىء عن طبيعة ووظيفة المسمى من الاسم نفسه. ومن البديهى طبعاً أن مثل هذه الطريقة غير المباشرة تفرض على المرء العمل بكثير من الحذر والنقد الصارم إذا ما أراد أن يتجنب ضلال السبيل والتيه فى بيداء الوهم الكاذب. ومن السهل أن ندرك أيضاً أن النتائج التى سنتوصل إليها فى ذلك غالباً ما تكون أقل من العمل المبذول. ولكن المهمة فى حد ذاتها على جانب كبير من السحر وهى تستحق كل جهد ، وانى لأرجو أن أتقدم خطوة اخرى إلى الأمام فى طريق البحث فى دين الجنوب العربى القديم. وقد وجدت عوناً قيماً لهذا العمل بالذات فى نتائج ابحاث ڤيسمان التاريخية الجغرافية. فهى تعطى اولاً عرضاً لأماكن عدد كبير من المعابد ، وبذلك تمكن من تحديد انتشار الآلهة المختلفة ، كما أنها تعطى فكرة ، وذلك بوجه عام على الأقل ، عن التطور التاريخى للدين.

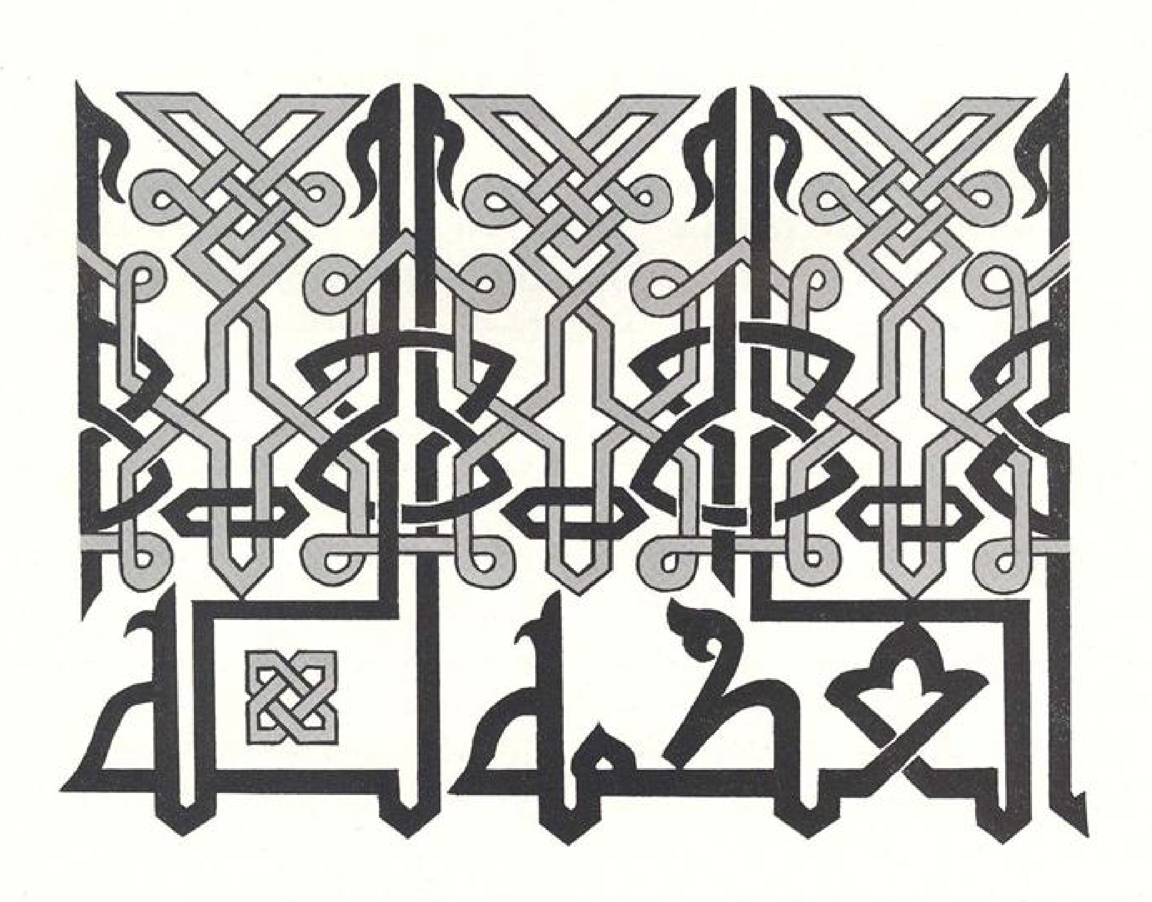
وإلى جانب الاهتمام الذى امتد عبر عدة اعوام بدراسة قضايا الدين العربى الجنوبى القديم ، فإن القطاع اللغوى من الدراسات السبئية ظلت وما تزال شغلى الشاغل. إذ على هذا الاساس وحده يمكن القيام بعمل مثمر فى حقول البحث الأخرى. وهذا هو مبدئى كذلك بالنسبة للتدريس الجامعى ؛ وإنى لأرجو بذلك أن أواصل التراث النمسوى الطيب الثابت فى الأبحاث السبئية وأن أسلمه كذلك إلى أيدى الجيل الصاعد.

فى أثناء اقامتى التى دامت عدة اعوام فى توبنجن ،

اتيحت لى الفرصة عدة مرات للعمل فى تعاون مثمر مع فون ڤيسمان، كان من نتائجه أيضاً اشتراكنا فى تأليف ونشر كتاب : «أبحاث حول الجغرافية التاريخية للجنوب العربى قبل الإسلام». وإلى جانب ذلك قام فون ڤيسمان برسم خريطة الحقتها بتصديرى لمجموعة من النقوش من مخلفات جلازر («مجموعة ادوارد جلازر — ٢»). ومن عمل كان مقرراً فى الأصل كتعليق على هذه الخريطة فقط نشأ أخيراً أهم كتاب فى الأبحاث السبئية لفون ڤيسمان وهو : «مجموعة ادوارد جلازر — ٣ : حول تاريخ وجغرافية الجنوب العربى القديم». وفى هذا الكتاب المفصل الشامل لا يظهر فون ڤيسمان كجغرافى ومؤرخ متبحر فى العلم غنى فى الأفكار فحسب، بل إنه خاض بطريقة تثير الدهشة مسائل الدراسات السبئية نفسها على اختلاف انواعها. وإلى جانب هذا الكتاب الذى أصبح مرجعاً وعوناً لا غنى عنهما، والذى يعتبر تطويراً حاسما للبحوث السبئية، فقد كرس فون ڤيسمان نفسه كذلك لعدد من البحوث الهامة الاخرى فى هذا العلم، وإننا لنرجو أن يزيد الدراسات السبئية غنىً بأعمال كثيرة أخرى.

من هذا العرض يتضح بما لا يقبل الشك أن الزعم الذى تقدمنا به فى بداية المقال حين قلنا بأن النمسا أسهمت فى استكشاف ودراسة الجنوب العربى من كل ناحية بنصيب حاسم، إنما هو قول بررناه وأثبتنا صحته كاملا وبالتمام. وفى ذلك لا يجوز أن ننسى خدمات وأعمال العلماء الآخرين ولا أن نقلل من شأنها. أما السبب فى عدم ذكر اسمائهم وتقدير أعمالهم هنا فليس اكثر من أن موضوع هذا المقال اقتصر على الأبحاث النمسوية للجنوب العربى دون غيرهـــا.

ترجمة : محمد على حشيشو



«العظمة لله» — عن مدرسة قراطاى بقونيا ، تركيا .